عبدالنبي اصطيف

إعادة النظر..
في التاريخ الأدبي العالمي

يشير هاوارد مانسينغ في مدخل (الرواية)، المدرج في «موسوعة روتلدج للنظرية السردية»، إلى أنه سيعالج الرواية بوصفها جنساً غربياً، وأنه لن يتطرق إلى التقاليد السردية الشرقية الغنية من مثل (حكاية غنجي) لـ«موراساكي شيكيبو» التي ولدت في مطلع القرن الثالث الميلادي، أو (رحلة إلى الغرب) الصينية لـ«تشن جين»، التي تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي، أو (ألف ليلة وليلة)، ما يعكس تأثير النزعة المركزية الغربية في تصوره للتاريخ الأدبي عامة، وتاريخ جنس الرواية خاصة. بل إن مما يعمق هذه النزعة البغيضة في البحث الأدبي تجاهلها لرواية (التحولات)، أو (الجحش الذهبي) لـ «أبوليوس لوكيوس»، الكاتب والفيلسوف الجزائري المولد، التي تعود إلى القرن الثاني الميلادي، وتبز، من ثَمَّ، ما ذكره من أعمال سردية يابانية وصينية وعربية في قدمها وعراقتها، مع أنها قد دُوّنت باللغة اللاتينية، لغة الإمبراطورية الرومانية آنذاك، ولغة الكنيسة أيضاً، ولكن إن هو إلا التعصب للغرب الأوروبي، والعنصرية التي لم تغادر التفكير الغربي الذي يرى في نفسه المثال والمآل: المثال الذي ينبغي أن يُقاس عليه المُنجَز الأدبي لكل العالم، والمآل الذي يجب، أو يُفترض به، أن ينتهي إليه هذا المنجز.

وواقع الحال أنه، في ظل المساءلة الواسعة الانتشار لنزعة التمركز حول الذات، التي سادت الدرس المقارن للأدب على مدى أكثر من قرنين، ليس ثمة من إجماع اليوم على تاريخ محدد لولادة الرواية في أوروبا، ولكن معظم مؤرخي نشأتها يرون أنها ولدت في القرن الثامن عشر في كل من فرنسا وإنجلترا، وينظرون إلى رائعة «ميغيل دو ثيربانتس» (دون كيخوته) المانشي «نسبة إلى مانشا»، التي كتبت في مطلع القرن السابع عشر، على أنها سلَف مهم لها. ورأي كهذا محفوز بالنزعة المركزية– الأوروبية، ربما لا يروق للبعض فيمضي إلى ما وراء الفسحة الأوروبية، ويشير بشكل خاص إلى «حكاية غنجي لسيدة البلاط الياباني موراساكي شيكيبو»، التي تعود إلى مطلع الألف الثالث للميلاد، غير أن البعض الآخر يتطلع إلى تاريخ أقدم من الرواية اليابانية من ناحية، وفسحة أقرب من الشرق الأقصى من ناحية أخرى، فيشير إلى الشرق الأدنى بوصفه موطناً لأصول الرواية، وهكذا نقرأ في كتاب بيير دانييل أويت (١٦٣٠ــ١٧٢١م) الموسوم بـ «بحث في أصول الروايات ١٦٧٠م» أن الرواية بوصفها جنساً أدبياً رئيسياً من أجناس الأدب الأوروبي، لم تبدأ في فرنسا أو إسبانيا، وأن علينا أن نمضي أبعد منهما زماناً ومكاناً، بل

> **توجد نزعة مركزية غربية تفرض تصورها للتاريخ الأدبي عامة**

أن نتجاوز الموروث الكلاسيكي، ونبحث عن هذا الأصل:

«في طبيعة الإنسان وروحه، الإنسان المخترع، عاشق الأشياء الجديدة والتخييلات، والراغب في أن يتعلم ويبلِّغ ما اخترع وتعلم؛ وهذا الميل عام لدى النوع البشري في كل العصور، وكل الأزمنة؛ ولكن الشرقيين بدوا دائماً أكثر حيازة له، وبقوة، من الآخرين، وهكذا ترك أنموذجهم ذلك الانطباع في معظم الأمم الغربية المؤدبة البريئة. وعندما أقول «الشرقيين»، فإني أقصد المصريين، والعرب، والفرس، والهنود، والسوريين. وسوف تُقِرّ بذلك دون ريب بمجرد أن أبيّن لك أن معظم روائيي العصور القديمة العظام قد جاؤوا من تلك الشعوب، نعم إن الشرقيين هم روّاد هذا الجنس الأدبي الذي فتن الإنسان منذ أقدم العصور، فهم الذين يظهرون، وإلى المدى الأتمّ، القدرات الإنسانية في سرعة البديهة، والخطاب، والخيال، وإنها– هذه الخصائص– التي استعملت أول ما استعملت على النحو الأفضل من جانب الشرقيين الذين منحونا روايتنا، والتي كان السوريون، والفرس، والمصريون أوائل ممارسيها». ورأي أويت هذا الذي تؤيده مارغريت آن دودي أستاذة العلوم الإنسانية في جامعة فاندربيلت، وتستند إليه في كتابها القصة الحقيقية للرواية الذي صدر عام (١٩٩٧م) على شاطئي المحيط الأطلسي، يتحدّى، بمعرفة صاحبه الواسعة، الرأي السائد في نشأة الرواية ويدعو إلى إعادة النظر فيه، والنظر ما وراء أوروبا بحثاً عن الفسحة الحقيقية التي وُلدت فيها الرواية.

ولكن، ماذا عن رواية أبوليوس لوكيوس (التحولات، أو الجحش الذهبي)، التي تعود إلى القرن الثاني الميلادي، والتي تسبق الرواية اليابانية بنحو ثمانية قرون؟ ولماذا لم يدرجها الأوروبيون في تأريخهم للرواية في أوروبا. يبدو أن ولادة صاحبها ونشأته في الجزائر في الشمال الإفريقي ربما كانت السبب وراء استبعادها من هذا التأريخ، مع أنها كانت ذات تأثير واسع وممتد في الأعمال الأدبية الأوروبية على مدى القرون التالية، بل إن تأثيرها قد طال عبقري القص العربي عبدالسلام العجيلي، الذي استلهم ما ورد فيها عن أسطورة «أمور وبسيشة» في روايته «أجملهن» التي صدرت عام (٢٠٠١م)، وروائياً وناقداً عربياً سورياً آخر هو نبيل سليمان الذي عارض في روايته (تحولات الإنسان الذهبي ٢٠٢٢م) رواية سلفه الجزائري، وقدّم في روايته نسخة نقيضة لها في جعل التحوّل يطال الحمار، الذي يصول ويجول ويعمر روايته حاملاً اسم كارم أسعد، ولا يكاد لسانه يبقى في حلقه على مدى ما يقرب من أربعمئة صفحة من صفحاتها، مخالفاً أبوليوس الذي ظل أبكم طوال فترة تحوّله إلى جحش.

ومعنى هذا أن على دارسي الأدب المقارن والأدب العالمي أن يعيدوا النظر في تأريخهم لمختلف الأجناس الأدبية، الغربية وغير الغربية، آخذين بالحسبان تجلّياتها المختلفة في مختلف الآداب القومية، وتنوعها، وفروقها المميزة لكل منها، ويتحرّوا بداياتها خارج نطاق الفسحة الأوروبية، ويتتبعوا نشأتها وتطورها من منظور عولمي لا يستثني أي أدب في العالم، ولا سيما آداب الشرق الأقصى، وشبه القارة الهندية، وبلاد فارس، والشرق العربي، والشمال الإفريقي. وأن يقوموا بذلك بعيداً عن المقاربة الما بعد استعمارية التي تفسح المجال واسعاً لحضور التجربة الاستعمارية في آداب العالم الثالث، وعالَم الجنوب، بوصفها محدداً لمختلف جوانبها. ذلك أن من المهم في البحث الأدبي أن نُحيِّد الحقائق العلمية في تدبّرنا لها عن الاعتبارات السياسية والأيديولوجية، فالعلم صفة من صفات مبدع الكون، وهو العالِم والعليم، ومنه يستمد العلم قدسيته وطهره.

لا يمكن تجاهل رواية (التحولات) للكاتب الجزائري أبو ليوس والأعمال السردية اليابانية والصينية والعربية

الدراسات والأبحاث تشير إلى أن الشرق الأقصى والشرق الأدنى هما موطن أصول الرواية